

إشكالية الحداثة في الجزائر بن هامل جميلة- طالبة دكتوراه جامعة تلمسان

ملخص

لقد أخذت ثنائية التقليد والحداثة صورا مختلفة، أحيانا صراعية وأحيانا أخرى تعايشية، فالحداثة لا ترتبط بالمفهوم الزمني أو المكاني فقط، بل تتعداه لتصبح استقلالية، إبداعا وممارسات وسياسات قائمة على أساس فكري، وقدرة على مواجهة أوضاع معينة. وفي هذا السياق حاولنا عرض وجهات النظر لأهم شبكات القراءة في الجزائر لهذه الثنائية مركزين عن تأسيس طبيعة الرابط الاجتماعي في مجتمع له خصوصياته متميزا بكائن ثقافي ذي بعد ديني أساسا؟

مقدمة

واجهت المنظومة القيمية في الجزائر مسألة الحداثة، هذه المسألة تقودنا بالضرورة للكلام عن التنمية، إذ كانت هذه الأخيرة ملازمة لها، فمن أجل تحقيق التنمية ينبغي أن نكون حدائين حسب القائمين على التنمية في مجتمعنا، وحتى نكون على هذه الصفة نحن مطالبون بالنظر إلى الأمام وإلى ما حققته المجتمعات الغربية العصرية، ومن ثم التخلي عن النظر إلى الوراء، النظر إلى المحلي التقليدي الذي تعداه الزمن. وإذا قلنا بأن الحداثة الغربية هي حالة تجديد وإبداع وانفتاح على الآخر، واستقلالية الفرد عن كل ارتباطاته العائلية والقبلية وجماعة الحي... ناهيك عن اقتحام العالم الخارجي، التشبع بروح المواطنة وكذا المنافسة والمخاطرة... وبالتالي خروج عن التقليد، فقد وجدت نفسها أمام مواجهة موروث تقليدي قوي، وذلك ما يعبر عن مفارقة بحثية أو إشكالية بين الـ نحن والحداثة.

1/ بين الحداثة والتحديث

تعد الحداثة في معناها العام الانفتاح على الآخر و التفاعل معه وحالة من حالات التجديد، وهنا تكمن الإشكالية بين ما هو تقليدي ماضوي، و ما هو حدائتي تجديدي. لقد كانت الحداثة نتيجة تحولات و تطورات تاريخية و اجتماعية، ومن هنا يكمن الفرق بين مصطلحي الحداثة و التحديث، فالحداثة في الأصل تمس الجانب المادي و المعنوي، في حين أن التحديث مظهر من مظاهر الحداثة، و الذي يمس الجانب المادي أساسا و قد يتمثل في الاستيراد التكنولوجي و التقني، دون أن يمس الجانب الفكري الذهني في العمق، "فهو العملية التي يتغير بها الأفراد من طريقة الحياة التقليدية إلى أسلوب في الحياة أكثر تعقيدا و أكثر تقدما من الناحية التكنولوجية"(1).

يمكن النظر للحدث على أنها تغيير جذري في الفكر، أي على مستوى التصورات الرمزية، وكذا في البناء الاجتماعي، وهذا ما يجعلها ترتبط تبعاً لذلك بعاملين، الفهم والتطبيق. فالحدث ليست مشروعاً تاريخياً كونياً شمولياً يُطبق على الجميع، فهي ليست مسألة تطبيق فحسب، بل تتجلى في الممارسات الإبداع والتجديد، لذا يتطلب مراعاة الخصائص المميزة لكل مجتمع. وفي السياق نفسه يمكن التأكيد مع بعض الباحثين المحليين أن الحدث لا تتأسس على سياسة "حرق المراحل"، بل يجب أن تكون مصحوبة بوعي فكري حداثي، فما جرى عندنا هو أن الحدث كانت على المستوى المادي، مفتقدة بذلك لوعي فكري حداثي، فالحدث أولاً هي قضية تحديث الذهنية حتى لا يكون هناك انفصام بين الجانب المادي والجانب الثقافي، أو على أقل تقدير "تشوش ثقافي" يتمظهر في نمطي عيش متناقضين.

2/قراءة طبيعة الرابط الاجتماعي في الجزائر: عرض حال(2)

أ/الطرح الحداثي:

يفترض هذا الطرح أن الرابط الاجتماعي يتأسس خارج الدين، فهو يؤمن بإمكانية تحويل المجتمع الجزائري من الوضعية الثقافية التقليدية إلى الوضعية الثقافية الحداثية، معتمدين في ذلك على سياسة حرق المراحل، حيث أعتبر التصنيع الشرط الأساسي لهذه العملية التنقيفية، و بالتالي تحويلهم إلى منتجين ومستهلكين عقلانيين، و هذا ما نلمسه من خلال الميثاق الوطني 1976 في صفحته 115 واصفا هذه العقليات بـ"... المعارضات و الأعمال التخريبية و العادات و الذهنية المتخلفة"، ذلك ما قد يتطابق مع ما لاحظته الجماعة الكندية حين قالت "يبقى سؤال علاقات الثقافة بالتسيير مسألة مركزية بالنسبة لكل الذين يهتمون بفعالية المؤسسات إلا أن التصورات لدى أغلبية طلبة التسيير ، المسيرين الجزائريين والأجانب والجامعيين تعتبر أن الثقافة الجزائرية هي معيق أكثر مما هي ورقة رابحة بالنسبة للنجاحة"(3).

ب/ الطرح التاريخي:

وفي المقابل يفترض هذا الطرح أن الرابط الاجتماعي يتأسس داخل الدين، و في هذا الإطار نرجع لبعض الأطروحات أو شبكات القراءة في ميدان العلوم الاجتماعية في الجزائر.

*أطروحة الثقافة التقليدية مع سليمان مظهر:

يمكن وصف هذه الأطروحة بالمناقضة تماماً للطرح الحداثي، بحيث يعرف الثقافة التقليدية على أنها "عجز الأشخاص و الشبكات العلاقتية و الجماعات على التحكم في وسائل معيشتهم و تنظيم مصيرهم حسب أهوائهم و حاجاتهم و طموحاتهم". تتميز هذه الثقافة بالعجز الفردي و الجماعي على التحكم في وسائل المعيشة و المصير، و تمثل ثقلاً وعائقاً أمام التجديد، هذه الثقافة التي تمتاز ببعدين جوهريين، أولهما انتهاز الفرص والتكيف مع الأوضاع و تحقيق المصالح الشخصية، وثانيهما

المساومة بين الناس. إن التخلف -حسبه- لا يرتبط بالاستعمار أو العولمة، و إنما يكمن في مسألة و كيفية تطبيق الحداثة، إنها ظاهرة التعامل مع الحداثة بقالب ثقافي تقليدي.

***أطروحة التقاطب الثقافي مع نور الدين طوالي:**

يتحدث الباحث عن مزاجية بين نظامين أو مجموعتين ثقافتين مختلفتين و متناقضتين، هذه المزاجية المتمثلة في المزج بين القيم الغربية و القيم الوطنية مشكلة بذلك نظاما واحدا، فالمجتمع يظهر تارة تقليديا، و تارة حداثيا، و تارة أخرى تقليديا و حداثيا معاً، و هذا ما جعله يتحدث عن تقاطب أو تزواج ثقافي، كما نجده يفرق بين المواقف الاجتماعية (التدين)، و التصورات الرمزية (الإسلام كنص). "و هل أن "جورج بلانديه" على إثر الكثيرين غيره، محق في اعتبار التبدلات الاجتماعية الشديدة و كأنها في أساس نموذجين مثاليين متناقضين أحدهما ثابت و متوازن و الآخر متحرك و معطل في حالتنا، هل أن أحدهما هو سوسولوجيا التوافق و الآخر هو سوسولوجيا الصراع" (4).

***/أطروحة الثنائية الثقافية مع جمال غريد:**

ينطلق الباحث في هذه الأطروحة من فكرة أن الاستعمار الذي كان بالدرجة الأولى استعمارا ثقافيا و ليس سياسيا و إديولوجيا، هو المسؤول عن الوضعية التي عليها المجتمع و نخبه حاليا و ما أنتجه من ممارسات و تصورات، و التي صقلت المجتمع الجزائري و حولته لكن دون أن تمحو ثقافته الأصلية. إذ يرى أن المجتمع الجزائري يعيش ثنائية و انقساماً ثقافياً، تقليديين و عصرائيين، مجموعة تنتمي إلى الثقافة العربية الإسلامية، و مجموعة تعيش و تفكر حسب القيم الثقافية الغربية. أي هناك تعايش بين مجموعتين مختلفتين حضارياً تحاول كل مجموعة فرض منطقتها، و إقصاء و محو الأخرى، و هذا ما يشرح التمايز و التعارض الثقافيين اللذين أفرزهما التدخل الفرنسي في الجزائر (المقاومة و التكيف)، و الذي استمر إلى يومنا هذا.

-على الكنز و سؤال الحداثة.

يقر الباحث أن الحداثة لا تأخذ معنى واحدا و نهائيا، بل يتحدد معناها حسب الوضعيات التي يعرفها المجتمع، و هذا ما جعله يحدد أربع مراحل لمسألة الحداثة في الجزائر. تُحيل الحداثة في المرحلة الأولى إلى الاستقلال و التخلص من الاستعمار و التبعية، و مدى وعي الجزائريين و قدرتهم على مواجهة الاستعمار، بينما ترتبط في المرحلة الثانية بعملية التنمية و ما أفرزتها من نتائج في جميع المستويات، السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و التربوية. في حين تُحيل في المرحلة الثالثة على التحديث الاقتصادي متمثلاً في إعادة هيكلة القطاع الاقتصادي العمومي. و ترتبط في المرحلة الرابعة بالبعد السياسي أي التعددية الحزبية و النقابية، خاصة بعد أحداث

أكتوبر 1988.

ويمكننا إضافة من جهتنا مرحلة خامسة قد ترتبط فيها الحداثة بالدولة المدنية، التي ستمثل أساسا في الفصل بين السلطات الثلاث، التنفيذية والقضائية والتشريعية.

-الحداثة الآلية والحداثة الرمزية عند عبد القادر جغلول

يوظف مفهومين لاستقراء الحداثة في الواقع الجزائري وهما: "الحداثة الآلية" و"الحداثة الرمزية"، فالحداثة التي عرفها المجتمع الجزائري -مستوى مقبول من في الصحة و التمدرس و المعيش... هي حداثة آلية، والتي تُلخص في فلسفتها ووظيفتها الحقيقية كشكل من أشكال التناقف، هذه الحداثة بُترت من بعدها الثقافي والتي لا يمكن أن يتم استيرادها ولا فرضها، بل تنتج من خلال المجتمعات القادرة على ذلك كجزء من التجربة التاريخية. فالتحديث الفعال الآلي الذي هو غير مكتمل أو منعه الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في العالم الإسلامي، كانت نتيجة الطبيعية الفجوة بين الواقع المعاش ونماذج الممارسات والسلوك، والتي أدت إلى إعادة إنتاج التقليد، فالخلل حسبه لا يكمن في الواقع، بل هو إِبستيمي.

تؤسس الحداثة الرمزية على أساس التراث الإسلامي المفكر فيه وفقا لاحتياجات الحياة الحاضرة. فالحداثة الغربية تأسست خارج الدين، و هذا ما يجعلها تواجه في مجتمعاتنا العربية الإسلامية البعد الديني و الاختلافات المجتمعية.

3/ثنائية التقليد والحداثة في مجال التنظيمات والعمل.

عملت الدولة الجزائرية منذ الاستقلال وبخاصة منذ نهاية الستينات وبداية السبعينات على تحديث المجتمع وتحريره من التبعية و التخلف واللاحاق بركب الدول المتقدمة، وذلك من خلال مشروع الحداثة وبناء دولة عصرية، مشروع تنموي قائم على سياسة التصنيع الثقيل، هذا الأخير الذي اعتبر كمحرك أساسي لما يُراد للجزائريين أن يكونوا عليه، وبذلك كانت مسيرة التنمية في الجزائر ملازمة للحداثة، في عملية النقل هذه، إلا أنها اصطدمت بالذهنية المخالفة للفرد الجزائري، هذه الذهنية ذات القلب المحلي بامتياز.

لقد درست إشكالية الحداثة في إطار علاقة المؤسسة بالمجتمع، فمن خلال دراستنا لمحتوى اثنين وعشرين أطروحة دكتوراه في تخصص علم اجتماع تنظيم وعمل بجامعة تلمسان و وهران-تدخل هذه المحاولة في إطار بحث أكاديمي أشمل- أوضحت بروز ثنائية تقليد وحداثة، وقد اشتملت مثلا الثقافة المجتمعية بدلا من التقليد و الثقافة التنظيمية بدلا من الحداثة، عالجت هذه المواضيع البحثية المختلفة من جهة و المشتركة في جوهر طرحها من جهة أخرى مسألة الثقافة العمالية أو الموروث الثقافي للعمال و علاقته بالتسيير المؤسساتي الحداثي العقلاني، و بالتالي تحديد المرجعية الثقافية المهيمنة على ممارسات و تصورات الفاعلين داخل المؤسسة، متسائلة عن مدى تفاعل المنظومتين الثقافيتين التقليدية و الحديثة معا في العملية التسييرية، و كيف تشكل و تساهم في بناء هوية مهنية لدى العامل الجزائري في ظل التغييرات التي عرفتها المؤسسة الجزائرية.

تبرهن هذه الدراسات بما لا يدع مجالاً للشك أن القيم السوسيوثقافية المحلية أو الموروث الثقافي و المتمثل بالخصوص في الدين والعادات و الارتباطات الجوارية... لا تزال تقف عائقاً أمام التسيير العقلاني الحداثي، و بالتالي الابتعاد عن المنطق المؤسساتي الحديث، و تظهر بعض أوجه عناصر هذه العوامل السوسيوثقافية في:

* استعمال العلاقات الشخصية و المعارف و الشبكات الاجتماعية المختلفة في التوظيف، و لتخطي العقبات البيروقراطية.

* اقتحام المرأة لعالم الشغل، خاصة في بعض الوظائف التي كانت حكراً على الذكور كالصحافة و المقاولاتية، حتى وإن كان ذلك راجع للظروف المعيشية الصعبة، و ارتفاع المستوى التعليمي وغيره، و من جهة ثانية استمرار النظرة الدونية اتجاهها كمرأة مسؤولة، و استمرار البعد الثقافي الأبوي و المتمثل في إسناد مسؤولية العمل المنزلي للمرأة كشرط لاستمرار أنوثتها، و هذا ما يبرر مرة أخرى تعايش هذه الثنائية، و حضور الثقافتين معاً. و أما بخصوص تسيير الموارد البشرية تقف الذهنية الفكرية للعمال الجزائريين عائقاً، و بالتالي تطرح إشكالاتاً عويصاً للمسيرين الجزائريين، و أما في العملية الاتصالية و القيادية داخل المؤسسة يتجه الأجراء نحو ما هو غير رسمي في أغلب الأحيان، علماً أن العمال يكتفون بربط علاقة آلية قائمة على أساس عمل مقابل أجر، و هذا ما يتطلب - كما أشرنا سابقاً - تحديث على مستوى الذهنيات إن "ممكن ذلك بالطبع"، لذا يمكن القول إن المنظومتين الثقافتين أفرزتا نوعاً من الممارسات التي أعاققت التسيير المؤسساتي الذي يُعتقد فيه أنه كوني.

* كما لوحظ أن عملية إنشاء المشاريع المقاولاتية تتسم بالطابع الجماعي القرابي المتمثل في الإخوة و الوالد و الأصدقاء المقربين، و بهيمنة الذكر على الأنثى. لا زالت الثقافة التقليدية تُعيق اكتساب تصورات و تمثلات العمال لعملمهم في حياتهم الاجتماعية، إذ أن المحيط أو البيئة المجتمعية لها تأثير على ممارسات الفاعلين و تصوراتهم، الأمر الذي يُمكننا القول بعدم إمكانية تبلور تفكير حداثي حسب الكونية الأوروبية.

يظهر أن هناك ثنائية تتحكم في الجانب التسييري، تتمثل الأولى في الطابع التقليدي، و الثانية في المنطق العقلاني الاقتصادي، أي أن هناك امثالاً لما هو تقليدي من جهة، و سعي نحو ما هو حداثي من جهة ثانية. فالموروث الثقافي شكل إطاراً مرجعياً للعامل الجزائري داخل المؤسسة، كما شكل ثقلاً على مختلف الممارسات التسييرية بالرغم من تلك المزوجة المشار إليها سلفاً. و بالتالي يمكن القول أن هناك تعايش أو تزاوج بين منظومتين مختلفتين، الأولى وفق معايير و قيم تقليدية، و الثانية وفق معايير عصرية و هذا ما يشكل "اتحاد توتري" بحسب تعبير "جورج بلانديه"، أو بتعبير آخر استمرارية الأنماط التقليدية مع الأنماط الحداثية دون إحداث قطيعة، و بالتالي تشكيل تكيف بين ما هو تقليدي و ما هو حداثي، و هذا ما يتماشى و أطروحة "التقاطب الثقافي" مع رائدها نور الدين طوالي، و الدراسة التي قامت بها الجماعة

الكندية في دراستها لعملية التسيير في الجزائر، حيث توصلت إلى أن "أشكال التسيير المطبقة في الجزائر تتناقض مع التصورات التقليدية التي يحملها الجزائريون، وأن الثقافة الجزائرية تعتبر بمثابة معيق، و بالتالي ليست هناك طرق تسيير كونية تطبق على الجميع" (4).

خاتمة

إذا كان علم الاجتماع في الجزائر يدرس مجتمعا غير المجتمع الذي وُجد فيه، فقد وُصف من طرف علماء اجتماعه بأوصاف كالفشل، الأزمة، الحيرة، الانسداد و غيرها من الكلمات...، فقد أخذت مسألة الحداثة في الجزائر هي الأخرى السياق نفسه، وهذا ما لمسناه من خلال شبكات القراءة لبعض علمائنا، فمن جهة نجد الطرح الحداثي (الوضعي)، ومن جهة ثانية الطرح التقليدي الذي ينادي باستمرارية القيم التقليدية (الثقافية)، و من جهة ثالثة الطرح الذي يجمع بينهما، وهذا ما فصلنا فيه من خلال دراستنا لمحتوى الأطروحات الدكتورالية، في دراسة مسألة الحداثة في إطار العلاقة بين المؤسسة و المجتمع، و التي انسأقت مع أطروحة التقاطب الثقافي، أي الجمع بين النظامين دون الفصل بينهما ، هذه الأطروحة التي من بين متغيراتها حسب اعتقادنا ما ذهب إليه "عبد القادر لقعج" حين أكد أننا نريد أن نكون حداثيين إلا أننا معاكسون في ذلك أي أن هناك بلورة جديدة مخالفة لطموحات الأفراد (5). كما يقترح صاحب الثنائية الثقافية فكرة الشرخ بين مجتمعين متلازمين و متوازيين .

الهوامش

(1) أحمد بدر، الاتصال الجماهيري بين الإعلام والتطويع والتنمية، دار قبار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص255.

(2) لقد اعتمدنا في هذه النقطة على محاضرات الأستاذ بشير محمد في التكوين الدكتورالي

بجامعة تلمسان. وللتوسع أكثر، أنظر

-سليمان مظهر، علم النفس الاجتماعي : نظرية المواجهة النفسية الاجتماعية مصدر المجابهة، منشورات تالة، ط1، 2010.

- نور الدين طوالي، الدين والطقوس و التغيرات، تر. وجيه البعين، منشورات عويدات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الط1، 1989 الجزائر.

- GUERIDDjamel, l'exception Algérienne, la modernisation à L'épreuve de la société, Ed. Casbah, 2007.

-L'Algérie et modernité, sous la direction d'Ali El kenz, Ed.dhakiret El ouma, 2015, p7.

- LAKJAA.A, Abdelkader Djeghloul, penseur d'une modernité...aux couleurs locales, inA Djeghloul, l'homme et l'œuvre, coordination et présentation A Lakjaa, PUO, septembre 2015.

(3) Culture et gestion en Algérie·Sous la direction·DanielMercure·léger· et léger·Paris·,Ed. Harmattan· 1997.P187.

4- نقلا عن نور الدين طوالي، المرجع السابق ص 277.

(5) Lakjaa Abdelkader, la jeunesse algérienne ; entre valeurs communautaires et aspirations sociétares in Hervé Cellier et Abla Rouag Djenidi : jeunesse , ville et marginalité ed, Chihab 2008.